تصدير

يأتي هذا الكتاب في إطار مشروع منهجي بدأته عام ١٩٩٦، واعتمدت فيه على إعادة صياغة دور النقد المعماري والعمراني ليتحول إلى أداة كاشفة ومحلّلة ومستشرفة، ليس فقط للقضايا المعمارية والعمرانية، بل يمتد ليشمل علاقة البيئة المبنية مع كل تحديات وإشكاليات السياق الاجتماعي والإنساني والثقافي والاقتصادي وحتى العقدي. فمن الواضح جليًا لكل مراقب للحركة المعمارية والعمرانية والثقافية في العالم العربي أن المكوّن النقدي آخذٌ في التضاؤل، بل أحيانًا نجده يتلاشى تمامًا من حركة الممارسة والتطوير والتغيير في البيئة المبنية. يضاف إلى هذا إدراكي بأن العملية النقدية والعملية الإبداعية وجهان لعملة واحدة، وأنه - بكل بساطة ومباشرة - لا يمكن أن تستعيد الدولُ العربيةُ والمجتمعاتُ الإسلاميةُ دورَها الإبداعي في الحركة المعمارية والعمرانية المعاصرة دون تفعيل حتمي لمنظومة نقدية مخلصة تختبر بمصداقية ما يضاف إلى عواصم بلاد المجتمعات الإسلامية ومدنها وقُراها ومستقراتها.

على جهة أخرى، فإن الكتاب يحمل عنوانًا صادمًا، بل قد يكون مرفوضًا تمامًا للجموع المتعاطفة مع مكة المكرمة العاصمة المقدسة، بحيث يدعوهم إلى رفض كل ما يليه من الكتاب. فالقارئ لا يتخيل إمكانية أي ربط على الإطلاق بين أطهر بقعة في العالم لجموع المسلمين: مكة المكرمة، المدينة المقدسة وقبلة المصلين، وبين مكان ارتبط بكل الخطايا والموبقات وهو مدينة لاس ڤيجاس الأمريكية. تتكون السيمفونية الصوتية للمكان الأول من ترتيل آيات القران الكريم ورفع أذان الصلوات الخمس وإقامتها وترديد الألسنة بالدعاء في هذا السياق الروحاني الفريد. أما المكان الآخر فتنبع إيقاعات موسيقاه من خليط جنوني بين تصادم الفيشات وأقراص النرد وبين صرخات فرحة المقامرين الفائزين وحسرة الخاسرين.

إن مكة مهد الإسلام، وهي المدينة التاريخية المقدسة التي ولد بها النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. هي المدينة التي من قلبها تدفقت المياه من بئر زمزم لتروي

عطش السيدة هاجر، زوجة النبي إبراهيم. مكة هي القبلة، اتجاه الصلاة لقرابة مليار ونصف المليار من المسلمين حول العالم. وكل عام يتوجه الحجَّاج من كل أرجاء العالم، إلى المدينة المقدسة لأداء مناسك الحج. أما مكة من حيث الحجم والتأثير الإقليمي والعالمي، فإن الحج هو بالقطع أعظم حدث احتفالي روحاني عقدي ليس فقط في الإسلام بل في كل الديانات. إنه الطقس الذي يستكمل أركان العقيدة الإسلامية لكل مسلم بالغ من قرابة خُمس سكان العالم الذين يعتنقون الإسلام، ويدركون قيمة الحج المُتمّ لأركان إسلامهم وإيمانهم وخضوعهم لأوامر الله. الحج هو دفعة إيمانية فريدة، والنَاس غالبًا ما تتحوّل حياتهم بعد هذه التجربة.

وعلى الرغم من تعدد القضايا التي تناولتها في كتاباتي ومقالاتي المنشورة، فإن هذا الكتاب يمثل بالقطع انتقاله نوعية في اجتهادي لتفعيل العلاقة بين المناهج النقدية والبيئات المعمارية والعمرانية. فإن القضية المعمارية والعمرانية في هذا الكتاب ترتبط بأقدس بقاع الأرض على الإطلاق عند المسلمين الذين يشكّلون أكثر من سُبع سكان العالم. يرتبط بالمدينة المقدسة: مكة المكرمة، التي يصعب وضعها في لفيف واحد مع المدن والبيئات العمرانية التي تخضع كل محاولة لتطويرها أو تخطيطها أو تنميتها إلى مستويات متعددة من النقد والتحليل. أما في حالة مكة فان الإطار المقدس للمدينة انسحب خطأ على تنميتها ومخططات تطويرها، بحيث أصبحت صياغة أطروحات نقدية لها عملاً صعبًا إن لم يكن مستحيلاً. ففي حالات متعددة قد يُفسَّر نقد ما يحدث في مكة أو المدينة المنورة بأنه جهد هدَّام يهدف إلى الإساءة إلى الإسلام ومعتقداته وسياقاته المقدسة. أو أنه ظلم لجهود جبارة تقدمها الحكومة السعودية لتسهيل تأدية شعائر الحج. إلا أن هذا بالضبط هو جوهر القضية. فلا يمكن لمنصف أن ينكر الجهد الجبار وبلايين الدولارات التي تخصصها المملكة السعودية لتحقيق ما يوصف عادة بأنه «البيئة الآمنة والمريحة» للحجَّاج التي تتضمن أوجه الإنفاق والرعاية الطبية والإسعاف الأرضي والطائر والمواصلات بأنواعها والمطافئ ومدن الخيام غير القابلة للاشتعال وأنظمة المراقبة، وغيرها من الخدمات التي تحقق البيئة المنشودة الآمنة المريحة لتسهيل مقام الحجَّاج في الأراضي المقدسة. والمراقب المنصف يدرك أن هذه المشاريع الإنمائية تتطلب الكثير من جهد الحكومة ورأس المال لإظهار أنها مشروعات غير هادفة للربح،

وأنها مشروعات تُبنَى في الواقع من أجل تحقيق «الراحة والسلامة» للحجاج، وهي الحجة التي يكثر ترديدها. ولكننا ننتهي بحقيقة أن أحدث معلم في مكة المكرمة، هو «بيغ بن الإسلامية» وهي ساعة تُزيَّن مع الهلال الذهبي، وشعار المملكة السعودية في المركز، وعبارة «الله أكبر» بالخط العربي على الحافة العليا، بالإضافة إلى أبراج البيت وفندق فيرمونت العملاق. والأخير مثال شاهد لجميع مشاريع التنمية الفانتازية التي سوف تساهم في حالة الاختناق العمراني ومن ثم الروحاني للمسجد الحرام والكعبة الشريفة. فهذه الساعة التي كُلِّفَت ٨٠٠ مليون دولار، هي رمز الرأسمالية البترولية بامتياز. ولكن دائمًا يبقى التساؤل الأكبر حول هذا العمل! فإلى جانب أهمية أن تكون بيئة الحج آمنة ومريحة فهي بالمقام الأول يجب أن تكون تجربة روحانية ومقدسة. ولكن الشواهد المرصودة توضح أن مكة المكرمة التي كانت يومًا من الأيام واديًا قاحلاً يستقطب الحجاج في رحلة روحانية تطهيرية، قد تحوّلت إلى نطاق تجاري استثماري استهلاكي محوط بالفنادق الفاخرة وناطحات السحاب الشاهقة ومراكز التسويق العالمية.

كيف يمكن ناقدًا أو باحثًا طرحُ مقارنة بين المدينة المقدسة ومدينة الخطيئة Sin City وهو اللقب الذي اشتهرت به لاس ڤيجاس، المدينة القابعة في عمق صحراء ولاية نيفادا بالولايات المتحدة الأمريكية. الواقع أن فكرة الكتاب هي تجاوز لهذه الرؤية التقليدية للتمييز ما بين المقدس والمدنس، وتقديم قراءة مغايرة مهما كان حجم ما تثيره من أحزان وأشجان وألم.